حَوْلَ قوله تعالى :

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة 484 حتى الصفحة 488

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ إعلم أن الضلال قد يُراد منه ضلال المعصية ، وهو الضلال عن الحق والخير والصلاح ، وقد يطلق على غير ذلك من المعاني المختلفة ، حسب المناسبة التي جاء فيها ، كما سيتضح معنا قريباً إن شاء الله تعالى .

فأما الضلال عن الحق والصلاح فهو غير مراد في هذه الآية قطعاً ، لأن الله تعالى نفاه عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضَلَّ صاحبكم وما غوى ﴾ فنفى سبحانه عن رسول الله ﷺ الضلالة التي هي ضدُّ الهدى ، والغواية التي هي ضد الرشاد ، ونزّهه عن ذلك بعد التأكيد بالقسم ، وذلك يتضمن شهادة الله تعالى لنبيه ﷺ بالهدى والرشاد في علمه وعمله ، وقاله وحاله ﷺ ، فهو ﷺ ليس بضالٍّ ، بل هو على هدى وعلمٍ بالحق ، وليس بغاوٍ بل هو راشد في علمه وقصده ، لم يلتفت لشيء سوى الهدى والحق .

فإنَّ الضالَّ هو الجاهل الذي يمشي على غير علم ، فلا يهتدي السبيل ، والغاوي هو الذي علم الحق فكتمه وقصد غيره .

فالهدى والرشاد هما أصل الكمال في الإنسان .

ولقد امتن الله تعالى على خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه أتاه رُشْده من قبل النبوة ؛ قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ﴾ فإذا كان الخليل كذلك ، فالحبيب الأكرم أولى وأجدر بذلك ، فإن الله تعالى آتاه رشده من قبل النبوة ، ولذا نبه الله تعالى قومه الذين عاندوه فقال لهم : ﴿ ما ضلَّ صاحبكم ﴾ أي : محمد ﷺ الذي تربى بينكم ، ونشأ فيكم ، فأنتم أعرف به من غيركم ، لم تعثروا له على ضلالة ولا غواية بل أموره كلها سَداد ورَشاد .

فليس الضلال الوارد في قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ليس هو الضلال عن الحق ، والميل إلى الفساد والشر ، فإنه منفي عنه ﷺ نصّاً في قوله تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ ـ ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تكن له ضلالة معصية .

إذاً : فقد يقول القائل : فما المراد بقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ؟

قلنا في الجواب : قد ذكر علماء السلف وجوهاً من المعاني لقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ .

الوجه الأول : إن معنى قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي : وجدك غير عالم بالنبوة وعلومها ، والكتاب المبين وما حواه ، فهداك لذلك ، وعلَّمك جميع ما هنالك ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين . نحن نقصُّ عليك أحسن القَصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإنْ كنتَ من قبله لمن

الغافلين ﴾ فليست هذه الغفلة غفلةً مطلقة ، ولا غفلةَ ضلالة أو غواية ، وإنما هي عدم دراية بتفاصيل الكتاب وعلومه ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمان . . ﴾ الآية ـ أي : ما كنت تدري بتفاصيل الإيمان العملي وواجباته ، حتى علمناك يا رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب الحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

الوجه الثاني : ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] من أنه ﷺ لما كان صغيراً عند جده عبد المطلب ، ضلَّ في شِعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه ، فردَّه إلى جده عبد المطلب ، وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله تعالى أن يردّ إليه محمداً ﷺ[2] .

ولذا قال بعضهم : إن إرجاعه ﷺ إلى جدِّه على يد أبي جهل ؛ فرعون هذه الأمة ، يُشبه إرجاع موسى إلى أمه على يد فرعون .

وقيل : ضلَّ مرة أخرى في شِعاب مكة ، فطلبوه فلم يجدوه ، فطاف عبد المطلب سبعاً ، وتضرَّع إلى الله تعالى ، فسمعوا منادياً : يا معشر الناس لا تضِجُّوا ، فإن لمحمدٍ ربّاً لا يخذله ولا يضيعه ، وإن

---

(١) رواه عنه البيهقي وابن عساكر وابن إسحاق ، كما في (شرح) الزرقاني وغيره .

(٢) انظر هذا القول في (تفسير) الرازي ، و (تفسير) ابن كثير ، و (المواهب) للقسطلاني ، وغيرها .

محمداً بوادي تهامة ، عند شجرة السَّمُر ، فسار عبد المطلب إليه فوجده قائماً تحت الشجرة .

فيكون هذا من باب قولهم : ضلَّ فلان في طريقه ، إذا سلك غير طريقه المقصودة ، ومنه قوله ﷺ في بيان حقوق الطريق : « وأن تغيثوا الملهوف ، وأن تهدوا الضالَّ . . » الحديث .

وهذا القول حول الآية يتناسب مع سياق الآية التي قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ حيث إنه سبحانه يعدِّد نعمَه على رسوله ﷺ ، وعنايته به منذ حداثة سنه إلى ما وراء ذلك .

الوجه الثالث : أن قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ يشير إلى الحالة التي مرت عليه ﷺ قبل البعثة ، وهي همُّه بالسَّمَر ، كما يسمُر الشباب ، فحفظه الله تعالى من ذلك وألقى عليه النوم[1] .

فعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلُّ ذلك يحول الله بيني وبين ذلك ، ثم ما هممت بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته » .

قال الحافظ الهيثمي : رواه البزار ، ورجاله ثقات . اهـ وسيأتي هذا الحديث قريباً مفصلاً في بحث : حفظه ﷺ قبل النبوة من الباطل .

الوجه الرابع : أن معنى قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾

---

(١) وهذا القول عزاه القسطلاني إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، وذكره القاضي عياض في (الشفا) وانظره في (شرح) القاري والخفاجي .

أي : وجدك هائماً في محبته تعالى ، فهداك إلى نبوَّته ورسالته ، فهو ضلال الهيام والاستغراق في المحبة الإلهية .

وقد أخبر الله تعالى عن أولاد يعقوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، حين قالوا لأبيهم : ﴿ قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ فإنهم أرادوا بضلاله : هُيامَه في يوسف ، وشغفه به ، ولم يريدوا بذلك ضلال الإثم والمعصية قطعاً ، لأن السياق ينفي ذلك ، ولأنهم لو أرادوا بذلك ضلال المعصية أو الإثم لكفروا ، لأنه طعن في يعقوب ـ الذي هو نبيُّ الله ورسوله ـ بالفسق والمعصية وذلك يوجب الكفر .

وهناك أجوبة أخرى عن معنى آية : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ مذكورة في التفاسير ، و (شرح المواهب) و (شرح الشفا) .